مجلة علم النفس – يوليو ١٩٥١

أثر اللاشعور فى علاقة الآباء بالأبناء

بقلم
فائزة على كامل

تتكون الأسرة بمجرد زواج شخصين ، وهذا الموقف الجديد يثير حالات سيكولوجية لدى كل من الزوجين قد تكون بسيطة فيمكن التغلب عليها وقد تكون شديدة بحيث تؤدى إلى استحالة التوافق وبالتالى تحتم الفراق بينهما . ولن نعرض لتأثير اللاشعور على العلاقة الزوجية وإنما نود أن نشير إلى أن القوى اللاشعورية تظهر منذ إتمام الزواج وليس فقط بعد ولادة أول طفل . فإذا كانت الزوجة مثلا من النوع الذى اعتمد اعتماداً شديداً على الوالدين فى مرحلة الطفولة فإنها بعد زواجها لن تستطيع أن تعيش عيشاً مستقلا ، ومن ثم تذهب من حين لآخر لتأخذ برأى والديها فى كل كبيرة وصغيرة . وقد يسبب ذلك للزوج ضيقاً يجعله يثور من أجل سلطته التى حطت من قدرها زوجته . كذلك إذا كان الزوج قد دلل فى صغره ، فكانت أمه عبدة له ، تنظر إليه على أنه كل شىء ومن أجله يجب أن تضحى بكل شىء فإنه لن يقبل من زوجته إلا أن تعامله المعاملة نفسها . فإذا كانت الزوجة حكيمة استطاعت أن تجعله يدرك أنها ليست أمه ، وأنها لا ترضى أن يظل طفلا بل تريد منه أن يكون زوجاً يتعاون معها فى الحياة . قد يكلل مثل هذا السعى بالنجاح ويسود الوئام وقد تكون المشكلة أعمق من ذلك فيؤدى موقف الزوجة إلى إثارة سلوكه الطفلى الذى كان يسلكه إزاء أمه فيهدد ويتوعد ويتولد الخلاف والشقاق .

وتزداد المشكلة تعقيداً ويصبح الأمر أكثر حرجاً عند ما يحل الضيف الجديد ألا وهو الطفل . فمثل تلك الزوجة آنفة الذكر تود لاشعورياً أن تظل ابنة معتمدة وألا تكون أماً بالإضافة إلى كونها زوجة ، وعلى ذلك سيكون هذا الطفل سبباً فى حرمانها من بعض رغباتهـا ولذاتها إذ سيضطرها أن تكف عن اعتمادها

على والديها وأن تصبح هى مسئولة يعتمد عليها . ولكن عدم التهيؤ والاستعداد لقبول مثل هذا الموقف سيثير سخط الأم على الطفل فتجد فى كل هفوة له فعلا متعمداً الغرض منه مضايقتها . فتدأب على نقده وتأنيبه وتمسك عن كل مدح وثناء مما يكون له أسوأ الأثر على الطفل إذ يشعر بأنه منبوذ . وقد يستجيب لذلك بتلويث نفسه وفى هذا عقاب للأم على إهمالها إياه وفى الوقت نفسه فيه تحقيق لما ينشده وهو اهتمام أمه به ورعايتها له . وقد تبدأ هذه العاصفة الانفعالية الناتجة من مقاومة الأم اللاشعورية للأمومة بمجرد ولادتها للطفل فتظهر عليها أعراض المرض مما يجعلها لا تستطيع إرضاعه ويضطرها أن تتركه فى رعاية أشخاص آخرين .

ولن يختلف موقف الزوج الذى نشأ مدللا متعلقا بأمه من طفولته عن موقف تلك الزوجة المعتمدة على والديها . فإذا ماوجهت الأم انتباهها إلى ذلك المولود الذى لا حول له ولا قوة فإن الزوج الغيور يثور ضد منافسه الصغير ويتبرم بكل شىء يأتيه ، ويقيد من حريته إلى أقصى حد بحجة أنه يسعى إلى الهدوء والسكينة فى المنزل بعد العمل المضنى طيلة النهار الصاخب . فللطفل أن يفعل ما يشاء ما دام والده ليس بالمنزل ولكن عليه أن يكف عن كل حركة بمجرد أن يسمع وقع قدميه صاعداً على السلم ، ويذكر « فلوجل »[1] أن كل الحالات التى يستاء فيها الوالد من وجود الطفل ترجع إلى أن هذا الموقف يعيد إلى ذهن الأب الموقف القديم الذى عاناه فى طفولته المبكرة وهو الخاص بحب والديه لبعضهما . فإنه يعيش مرة ثانية فى هذا الموقف مع استبدال الأم بالزوجة والأب بالطفل . فبطريقة لاشعورية يتم التحويل وتتقمص الزوجة شخصية الأم وهذا تفسير الغيرة عليها ، بينما يحل الطفل محل الأب وهذا سر الشعور بالعداء نحوه .

وفى كلتا هاتين الحالتين يعمل الأب على أن يقوم بدوره ودور الأم معا ، وتحاول الأم أن تشغل مكان الأب الشاغر ولكن هذا لا يجدى إذ أن الطفل فى حاجة إلى كلا والديه كيما يتم التوازن فى تطور شخصيته . قد يستطيع أن يجد بديلا عن الأم فى مدارس الحضانة مثلا ولكن من الصعب أن يعوض الأب إذ أنه يمثل القوة التى تستند إليها الأم فى الأسرة .

---

1. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family ch. XIV.

وقد يكون الحال عكس ما ذكرنا ، أعنى أن يكون الوالدان قد حرما من الحب فى طفولتهما . ففى هذه الحالة إذا جاء ولد فى الأسرة قد تتجه إليه الأم محاولة أن ترضى نزعتها إلى الحب . ولكن فى أغلب الحالات تكره الأم الابن لأنها لا شعوريا ستتمثل فيه صورة الأخ الذى كان منافساً لها فى طفولتها مثلا وكان سبباً فى حرمانها من حب والديها . وبذلك تتجدد الصراعات القديمة المكبوتة ، فنجدها ترمى الطفل بما كانت تود أن يكون عليه منافسوها ، فتقول عنه مثلا : إنه هادئ دائماً . . . . إنه يتحرك ببطء . . . . إنه يحتاج إلى إظهار شىء من النزعة العدوانية . . . إلخ . ويتأثر الطفل بمثل هذه الأقوال فعلى الرغم من أنها لا تمثل طبيعته فى شىء فإن تأثره بأمه يهيئ له أنه هو فعلا كذلك .

والحال بالمثل إذا كان الأب قد قاسى من معاملة أب جبار ، فإن كرهه المكبوت لأبيه يظهر عند ما ينجب ولداً ، خاصة إذا أطلق عليه اسم الجد تمشياً مع تلك العادة القديمة . فهنا نجد أن الأب سيتصور ابنه على أنه أبوه الراحل ويتصرف إزاءه كما كان أبوه يتصرف نحوه . لقد انعكس الدور فيصبح هو الأب والأب هو الطفل . ويطلق « أرنست جونز » على هذه العملية اسم "the phantasy of the reversal of generations" فالرجل ينتقم فى الواقع لنفسه من الطفل بعد أن فشل فى الانتقام من والده . فعلى الطفل أن يطيع الآن كل الأوامر وإذا خالفها حل به أشد أنواع العقاب .

وأذكر هنا حالة طالب فى السابعة عشرة من عمره أتى يشكو من اكتئاب شديد يعتريه ومن مراودة فكرة الانتحار له ، فقد يئس من الحياة ولا أمل له فى المستقبل إذ يخيل له أنه لن يستطيع مواصلة الدراسة لأنه فقد قدرته على تركيز الانتباه وأصبح كثير الشرود الذهنى .

بتتبع هذه الحالة اتضح أن علة اضطراب الطالب هى سوء معاملة والده له . فهو يحد من حريته حداً شديداً فيكاد يحاسبه على أنفاسه . ويحاول دائما أن يسخر من آرائه بل إنه ليلذ له أن يشاهد من يحط من قدره ويشجعهم على التمادى حتى يضطر الطالب إلى مغادرة المكان . لقد حاول الجحود والتذمر ولكنه يشعر بضعف نفسه أمام قوة الأب العنيفة ولذلك يضطر إلى الظهور بمظهر الخضوع والاستسلام على كره منه . بالسير خطوة أخرى وقفنا على سر معاملة الأب لابنه هذه

المعاملة القاسية . فقد توفى والده هو (أى الطالب) وهو طفل رضيع ثم تزوجت أمه رجلا قاسياً كان يعاقبه على ما يصدر عنه من أخطاء بسيطة بالحبس فى غرفة منعزلة لعدة أيام . ولقد حرمه من إكمال تعليمه بعد أن بدد ثروة أبيه وجعله يقاسى من حرمان مادى أليم . . . . فهذه الحالة توضح من غير شك تلك الفكرة السابقة .

ونمت ظاهرة نجدها لدى بعض الأمهات وهى كرههن لأنوثتهن . فتعد الأم الرضاعة مثلا شيئاً حيوانياً . ويؤثر هذا الشعور بطريق غير مباشر على الطفل إذ قد يقلل من اندفاع اللبن مما يجعل الطفل يترك الثدى مبكراً ويحرم من دفء لبنه ولذة مصه . فمثل هذه الأم تتمنى أن تكون رجلا وتسخط على أن خلقت امرأة وهذه إذا أنجبت ولداً سعدت سعادة لا مثيل لها . إنها تتقمص شخصيته لأنه يمثل لها ما كانت تود أن تكون عليه ؛ أما إذا وضعت بنتاً بعد ذلك فإنها لا بد أن تقف منها موقف العداء إذ ترى فيها ما لم تكن تتمناه . ومن هنا فإن كل ما تفعله البنت فهو خطأ يستحق العقاب بينما كل ما يقوم به الولد محمود يستحق الإطراء والاستحسان . ولا يخفى على البنت حقيقة الموقف فتشعر بأن أمها تكرهها . وأنها تنتهز كل فرصة لإيلامها ، ولكنها لا تدرى السبب الخفى وهو أن مولدها قد أثار بغض الأم المكبوت لجنسها فأعيد الصراع بينها وبين أنوثتها .

إن مثل هذه الأم تسى ء إلى ابنها وابنتها معاً . فسيضطر الولد إلى تقمص شخصية الأم ويظل ثابتاً عند الوجه السلبى من الصراع الأوديبى ما دام لم يُسمح له أن يختلط بالأب لتعلق الأم الشديد به . وهكذا يلازم الطفل أمه فى كل مكان تذهب إليه ، فيدخل معها المطبخ ، ويقوم عن طيب خاطر بغسل الأوانى وتنظيف الأرضية . . . . أما البنت فإنها سترفض كل شىء يمت إلى الأنوثة بصلة . وتصبح مثل أمها تنزع إلى الاسترجال . وعلى الأب فى مثل هذه الأسرة أن ينتحى جانباً وألا يأمل فى دور رئيسى إذا أراد السلامة لنفسه .

وقد يؤدى شعور البنت برغبة أمها فى إنجاب ولد إذا لم تكن قد أنجبت إلى اضطراب شديد يلحق بها . وتأتى « مرجريت روبن Margarete Ruben

بمثال لطفلة اسمها Eva[1] عمرها خمس سنوات كانت لا تستطيع فراق أمها لحظة واحدة ، ولا يمكنها النوم إذا لم تكن أختها الكبرى فى صحبتها . كانت تخاف الأغراب ، وإذا ذهبت مع أمها لقضاء بعض الحاجيات فإنها كانت تدفن وجهها فى ملابس أمها إذا حاول أحد التكلم معها . وقد ظهر قلق الطفلة إزاء والدها بوضوح ، فرفضت أن يراها عارية وكانت تبكى وتصيح إذا حاول الدخول وهى تستحم ، بل أخيراً أخذت لا تسمح له بتقبيلها أو ملامستها . وأصبحت تقوم مفزوعة فى الليالى الأخيرة . ولوحظ أيضا كرهها للعبها الحيوانات كما فقدت شغفها بعرائسها . ولكن كل هذه الأعراض لم تكترث لها الأم وجاءت تشكو من عدم قدرة الطفلة على تعلم اللغة الإنجليزية بحيث أنها لن تستطيع إدخالها فى المدرسة التى ترغبها .

فى إحدى الجلسات أخذت الطفلة تلعب بالصلصال فكونت جسم حصان فقط دون رأس أو رجلين أو ذيل على الرغم من أنها عند ما سئلت عن هذه الأشياء لم تنكر وجودها . وفى أثناء إجراء اختبارات "Buhler" كان يوجد اختبار خاص بتركيب عروسة خشب من أجزاء منفصلة تمثل الجذع والأطراف والرأس . ولكن الطفلة لم تستطع تبين الذراعين أو الساقين وبالتالى لم تستطع وضع تلك الأجزاء فى موضعها الصحيح . لقد ارتمت على الكرسى واحمر وجهها وأعلنت فشلها . وقد كان فشلها فى هذا الاختبار مثيراً للانتباه لأنه تبعاً لاختبارات أخرى ثبت أن قدرتها العقلية أكبر من عمرها بتسعة أشهر . ومن هاتين الاستجابتين وقفت « روبن » على حقيقة مشكلة إيفا فهى تنحصر فى قلقها من أجل تحطيم جسمها .

وعند استدعاء الأم أخذت تتكلم معظم الوقت عن نفسها ، فكانت ثائرة خوفاً من أن تكون حاملا وحالتهم المادية لا تحتمل نفقات طفل ثالث . ولكن « بما أن القدر قدر ذلك » فلن تجد هى وزوجها إلا الامتثال لحكمه . ولكن هذا الامتثال كان يرجع فى الواقع إلى رغبتها الشديدة فى أن يكون لها ولد لأنها أشرفت على الأربعين . ولكن خاب ظنها بعد ذلك إذ ظهر أنها ليست حاملا .

(١) Margarete Ruben : A Contribution to the Education of A Parent in the Psychoanalytic Study of the Child Vol I. 1945.

وفى ذات مرة قالت لصغيرتها إيفا . . . هلا كنت ولداً ؟ فانفجرت الطفلة بالبكاء . ويتضح من ذلك أن رغبة الأم فى إنجاب ولد قد أثارت صراعات لا شعورية فى الطفلة وهى الخاصة بحسد الولد على امتلاكه القضيب "penis envy" وما يتبع ذلك من شعور لدى البنت بأنها قد حرمت من ذلك عقابا لها .

وقد يفضل الأب البنت على الولد ، وذلك عند ما يكون فى طفولته قد شعر بوجود أكثر من أم وذلك بأن توجد جدة أو عمة أو مربية تلازمه تماماً . فهنا لا يكتفى الزوج بعلاقة واحدة وهى التى يجب أن تكون مع زوجته وإنما يأخذ ابنته كمنافسة لهذه الزوجة التى تضطر أن تقف موقفاً سلبياً وتكون أشبه بمربية لا أكثر ولا أقل . وكلا الموقفين سواء أكان موقف الأم التى تفضل ابنها أم موقف الأب الذى يحابى ابنته ليس بالمرغوب فيه ولا بالمستحسن سواء للآباء أو الأبناء .

ويتجلى أثر اللاشعور فى موقف الوالدين من الإجابة على أسئلة أبنائهم المتعلقة بالأمور الجنسية . فهذه المسائل يحاول الطفل الاستفسار عنها ولكن غالبا لا يجد من يجيب على استفساره بصدق وبالقدر الذى يستطيع أن يفهمه . وفى الواقع أن الآباء هنا تصدر منهم استجابة ثأرية لا شعورية نتيجة لما صادفوه فى طفولتهم . فهم يصبغون هذه الأمور بطابع السرية ، ويحيطونها بسياج من الكتمان ، فينتقل المضمون الغامض من جيل إلى جيل . وكل ذلك يتم بصورة لاشعورية فلا يتبين الوالدان حقيقة ما يفعلان بل إنهما ليثوران إذا نبههما أحد إلى هذه الحقيقة .

ويحدد اللاشعور أيضاً موقف الوالدين من أبنائهم إذا أصيبوا بانحراف جنسى فيظهر الهلع والجزع إذا مس فيهما صراعاً مكبوتاً ، وبناء على ذلك فإنهما يسيئان إلى أبنائهم بدلا من مساعدتهم . خصوصاً إذا رأى المعالج أن يقوم الأب أو الأم بعلاج الطفل تحت إرشاده وذلك كما فعل فرويد لأول مرة فى حالة "Little Hans" فقد قام الأب مقام المحلل .

ونشاهد هذا الأثر فى حالة والدة إيفا التى ذكرتها « روبن » . فهى قد أحضرت « إيفا » وأختها الكبرى "Henny" أيضا التى تبلغ ٩ سنوات للعلاج . فنجحت فى العلاج مع « إيفا » ولكنها فشلت مع « هنى » لشعورها الماسوكى

السادى إزاءها . ولقد وصفتها بأنها عاطفية بينما تعد « إيفا » باردة . وكانت عاطفة الأم قوية من ناحية « هنى » لأنها ظلت فتاتها الوحيدة لمدة خمس سنوات ، فأصبح لها منزلة خاصة إذ كانت الأم هى الأخرى فتاة وحيدة . وقد ذكرت بشىء من القلق أن « إيفا » تمارس الاستمناء وذلك تقليداً « لهنى » التى تخشى أن تكون قد ورثت هذه العادة عنها هى نفسها . وبناء على ذلك لم تستطع التعاون فى علاج « هنى » إذ كانت تستعمل التفسيرات لمضايقة الطفلة ، فقد كان فى الواقع عقاباً للأم ذاتها بطريق لا شعورى . وكانت تجد صعوبة أيضا فى قبول تفسيرات تخيلات « إيفا » . وكانت تعلق قائلة إنها هى لم تكن تفكر مطلقاً فى مثل هذه الأشياء عند ما كانت طفلة .

وقد حاولت « روبن » أن تحل صراعات الأم اللاشعورية وكان يسير علاج الطفلتين سيراً مرضياً طالما لا تعكس الأم مشاكلها على مشاكل الطفلتين . وتنتهى « روبن » من دراسة هذه الحالة بالتساؤل عن حقيقة الموقف هنا : فهل هو يرجع إلى أن الصراعات المكبوتة تعود إلى الظهور ثانية فى ذهن الأم عند ما يعانيها الطفل فى مجرى تطوره العادى أم أنها تصل إلى الطفل لأنها موجودة دائماً فى ذهن الأم اللاشعورى ؟

نستطيع أن نجيب على هذا التساؤل بقولنا إنه يوجد الجانبان ، فأحياناً يستجيب الأم لاشعورياً لتطور طفلها وأحياناً أخرى يستجيب الطفل لرغبة أمه اللاشعورية . فنجد مثلا « مرجريت فريس "Margeret E. Fries" (١) نستشهد بحالة مسز ا التى كانت تستجيب لكل مرحلة من مراحل تطور ابنتها . فلقد كانت لاشعورياً تطيل مدة طفولة ابنتها محاولة تأخير نضج شخصيتها . إنها هى لم تكن سعيدة فى فترة المراهقة ولم تمر بها مروراً عادياً وقد نشطت هذه الانفعالات المكبوتة عند ما بلغت ابنتها الحادية عشر وابتدأت تحيض ، فسيطرت عليها دوافعها العصابية وجعلتها لا تسمح لفتاتها بمواجهة الواقع حتى تقوى ابنتها .

أما الجانب الآخر وهو الخاص باستجابة الطفل لرغبة أمه اللاشعورية فقد

(١) Margaret Fries : The Child's Ego Development ..... in the Psychoanalytic Study of the Child vol. II. 1946.

عرضت له « مليتا سبرلنج "Melitta Sperling" »[١] . وهى تعد هذه العملية تخاطراً[٢] أو تحويلا فكرياً . فرغبة الأم تنتقل إلى الطفل عن طريق بعض الإشارات التى لا تقدرها الأم ولكن يكون الأطفال فى الواقع شديدى الحساسية لها . فيوجد بين الأم وطفلها اتصال يسبق الاتصال اللفظى . فلقد دلت الأبحاث الكلينيكية على أن شعور الأم ولا شعورها ينتقلان إلى الطفل خلال كل شىء تقوم بفعله له . فهو يشعر بالراحة أو الكدر إزاء نبرات صوت الأم أو ملامسة يديها له أثناء مساعدتها له على ارتداء ملابسه أو خلعها . ففهمه لأمه ليس بمقصور على عملية الرضاعة . وتصل « رنيه سپتز "René Spitz" »[٣] من ملاحظتها للأطفال فى السنة الأولى إلى أنه تعبيرات وجه الأم يكون لها تأثيرها على الطفل منذ الشهر الثالث . فإذا كان الأثر سيئاً فإن علامات القلق تتجلى فى بكاء الطفل كلما رأى وجه شخص كبير .

نعود إلى « سبرلنج » فنجد أنها تستدل بحالات على أن بعض الأبناء لا يستجيبون إلى المضمون الظاهر لكلام آبائهم وإنما يستجيبون للجانب اللاشعورى . ومن هذه الحالات نذكر حالة أم كانت منكفة للغاية فتقمصت شخصية ابنتها « لورا » البالغة من العمر خمس سنوات ، فكانت تشبع دوافعها السادية المنكفة عن طريقها . فلقد وجدت « لورا » صعوبة فى مخالطة أطفال المدرسة التى التحقت بها على الرغم من أنها كانت تود أن تكون صديقة لهم ، ولكنها كانت تجد نفسها مجبرة على إظهار العداء لهم مما جعل الأطفال يطلقون عليها اسم "naughty Laura" . وكانت الأم طفلة نموذجية فى صغرها وكانت تظهر عجبها من سلوك ابنتها خاصة وقد بدأت توجه ألفاظاً جارحة إلى جدتها وخالتها الساكنتين

---

(١) Melitta Sperling : Children's Interpretation & Reaction to the. Unconscions of their Mothers in Inten. Jour. of Psychoanal. vtol XXXI. 1950 parts 112.

(٢) التخاطر : الانتقال عن بعد للخواطر والوجدانيات وغيرها من التجارب الشعورية المعقدة من عقل إلى عقل على سبيل الوهلة . مع الزعم بأن هذا الانتقال يتم بغير الوسائل الحسية المعروفة . مجلة علم النفس . عدد يونية سنة ١٩٤٥ . « باب التعريفات » .

(٣) René Spitz : Anxiety in Infancy..... in Inter. Jour. of Psychoanal. vol. XXXI. 1950.

معهم على الرغم من أنها كانتا تعاملانها معاملة حسنة للغاية . ولكن تحليل الأم أثبت أن الطفلة ما فعلت ذلك إلا تحت تأثير إغراء لاشعورى من جانب الأم . فقد كانت تجهل حقيقة شعورها إزاء أمها وأختها ولكن بالتحليل تبين لها أنها تكرههما فعلا وهنا فزعت لأن « لورا » استطاعت أن تقرأ أفكارها . وفى ذات مرة أنبت الطفلة على سلوكها العدائى لجدتها وخالتها وهنا قالت الطفلة : « ولكنك أنت تكرهيهما يا أماه . . . إنك تر يدنى أن أفعل ذلك . . . » وقد سألتها الأم عما جعلها تعتقد ذلك فأجابتها بأنها سمعتها تحادثهما فى التليفون واستطاعت أن تشعر بأنها تكرههما . وبذلك اتضح للأم بجلاء أن لاشعورها قد عكس نفسه على ابنتها وجعلها تسلك ذلك السلوك .

ونأتى بحالة ثانية ذكرها « أبرندروف "Oberndorf" »[1] تبين بجلاء أيضاً استجابة ابن لرغبة أمه اللاشعورية . فكان هذا الابن عمره ٣ سنوات ، ابتدأ يقرص أمه ويضربها إذا شـــاهد والده يقبلها ، ويخبطها إذا سمع أحداً يخاطبها بصوت مرتفع . ومنذ نمت أسنانه أخذ يعضها فى ذراعيها أو رجليها إذا شعر بأن والده يوجه إليها أى اهتمام .

بالرجوع إلى تاريخ الأم أزيح الستار عن العوامل التى أدت بالطفل أن يسلك هذا السلوك الشاذ . فلقد كانت الابنة المفضلة لأب مستبد ، فعلى الرغم من حزمه وشدته مع زوجته وباقى أفراد الأسرة إلا أنه كان يلبى لها كل رغباتها . وقد تزوجت فى سن التاسعة عشرة شاباً ضخما ، غير مهذب . وكانت تحبه للغاية ولكن بعد ليلة الزفاف انقلبت علاقتها به . فقد تغير ذلك الزوج بين عشية وضحاها من شخص تعجب به إلى إنسان جان ، غليظ تخجل أن تظهر معه فى المجتمعات . وفى رحلة شهر العسل أصيبت بغشيان واكتئاب ملحوظ . . . وأخيراً اضطرا إلى الطلاق بعد سنة من زواجهما . وظلت ٦ أشهر ثم تزوجت رجلا أكبر من زوجها السابق قليلا ، ناجحاً فى عمله ، هادئ الطبع . وعلى الرغم من أنها كانت فى صحة جيدة فى الفترة التى بين طلاقها وزواجها الثانى إلا أن تلك الأعراض السابقة قد ظهرت بعد الاحتفال بالزواج الثانى مباشرة .

---

(١) Oberndrof : Child-Parent Relationship in Psycho-analysis today by Sandor Lorand.

وقد ولد الطفل التى جاءت تشكو منه بعد سنة من زواجها الثانى ، وكانت طيلة فترة الحمل تعانى الغثيان ، وظلت ملازمة الفراش ما يقرب من سنتين بعد ولادة الطفل على الرغم من عـــدم وجود أعراض جسمية . وقد تبين أن سبب تحسن صحتها بعد بلوغ الطفل سن سنتين هو أنه بذلك السن يستطيع أن يقف موقفاً إيجابياً ويحقق لها بعض رغباتها اللاشعورية . فقد أظهر تحليلها أنها ما زالت متعلقة بزوجها الأول الغليظ وكانت تتضايق من وداعة الثانى ومن خلوه من الصفات التى كانت تعجب بها فى أبيها . وهكذا فقد أرادت أن تعوض فشلها فى زيجتها الثانية بالتعلق الشديد بطفلها .

وهذا التعلق الشديد جعل الطفل لا يطيق أى منافس له فى حب أمه ، وهذا الذى كان يدفعه إلى الهجوم على أمه كلما سمع أحداً يخاطبها بصوت مرتفع . إذ تبعاً لخبرته الخاصة استدل على أن الصوت المرتفع يدل على الغضب ويتضمن أيضا العقاب . ومن ثم كان كلما سمع أحداً يكلم أمه بصوت مرتفع اعتقد أنها أتت أمراً نكراً فيشترك فى إنزال العقاب بها وبعد ذلك قصاصاً عادلا لعدم قصرها حبها عليه .

وينتهى « أبرندروف » من دراسة هذه الحالة إلى أن « شقاوة » الأطفال يثيرها أحياناً أحد الوالدين بطريقة لاشـــعورية بل أنه ليؤيدها ويشجعها . فهذه الأم كانت تقابل هجمات ابنها ضاحكة فى عذوبة ولم تشكُ إلا بعد أن أصبح الطفل عنيفاً جداً فى اعتدائه فكان يسيل الدم من ساقها فى بعض الأحيان ، ويترك آثاراً زرقاء سوداء فى ذراعيها من قرصه . فلولا أن الطفل أشبع رغبة لاشعورية لدى الأم ما سمحت له بفعل كل ذلك . وفى الواقع أن هذه الزوجة كانت تدعو زوجها لاشعوريا أن يحذو حذو ابنه ، فيصبغ سلوكه معها بشىء من العنف والقسوة إذا أراد أن تحبه كما تحب طفلها . ومن جهة أخرى نلاحظ أنها تعد نفسها مذنبة لقيامها بدور الذكر المعتدى والزوجة غير المحبوبة ومن هنا فإن ضرب الطفل لها سيهدئ من إحساسها اللاشعورى بالذنب والخطيئة .

* * *

يتبين لنا من كل هذا أن الآباء لو فهموا حقيقة أنفسهم أولا وطبيعة الطفل ثانياً لما قالوا : « لقد كنا سعداء قبل أن ننجب الأولاد . . . . لقد نشأت المتاعب منذ أن جاء الطفل إلى الوجود . . . . » فى الواقع أنهم يسقطون صراعهم الداخلى فى علاقتهم بابنائهم . بل لنجد منهم مقاومة أحياناً إزاء علاج هؤلاء الأبناء إذا اضطربوا . ونحن نعرف أن الطفل لا يأتى من تلقاء نفسه للطبيب وعلى ذلك إذا لم يوجد التعاون من جانب والديه فلن يتم سير العلاج . فبينما فى علاج البالغين نتحاشى أى اتصال بأسرة المريض فإننا لا نستغنى عن الاتصال المستمر بالأم فى حالة الطفل لتعدل من طرق تربيتها بما يتوافق وسير التحليل . وقد شاهدنا أنه يترك أحياناً العلاج كله للأب أو الأم . وفى أحيان أخرى يستعان بالأم فى العيادة فيسمح لها بحضور الجلسات . فقد اضطرت "Hedy Schwarz"[1] إلى ذلك عند ما أتى لها طفل كانت لا تستطيع فهم لغته الطفلية فكانت تستعين بالأم لتقوم بالترجمة . ولكنها تبينت أن لهذه الطريقة ميزتها العظيمة إذ أنها تعطينا فرصة لدراسة المجرى الانفعالى بين الأم وطفلها وكيفية تعرضها لاضطراباته ، وبهذا تفصح عن دوافعها اللاشعورية وتفسر لها وبذلك يتجنب طغيان مشاكلها وتعكيرها جو التحليل . ثم إن إشراك الأم بهذه الطريقة لن يجعل مجالا لغضبها عند ما نشاهد نشوء العلاقة القوية بين المحلل أو المحللة وطفلها . وبعد مدة سيأتى الطفل بمفرده إلى العيادة ولكن قبل ذلك يجب أن نهيىء الأم لمثل هذا الانفصال عن طفلها . فيجب أن تعوض عن ذلك بمقابلات خاصة لها بمفردها تعطى فيها معلومات مفصلة عن سير التحليل . وبعد فطم الأم عن المجىء إلى العيادة يجب أن تظل مواظبة على إرسال تقريرات وافية عن سلوك الطفل اليومى . ومن ثم فإنها ستشعر بأنها شريكة فى العلاج وإن كانت لا تحضر إلى العيادة .

ولا يكفى أن تحل مشاكل الآباء وإنما يجب أن يتبينوا طبيعة طفلهم « فيجرعوه تجارب الحياة بقدر وكيفية يتفقان وحالته الجسمية والعقلية والانفعالية على حد تعبير M. Fries فيجب أن يعرفوا نوع النشاط الجبلى الذى جبل عليه الطفل . فهناك الطفل الهادئ وهناك الطفل المتوسط وهناك الطفل النشط ، ولا شك أن كل واحد

(١) Hedy Schwarz : The Mother in the Consulting Room in the Psychoanalytic Study of the Child vol. V.

يختلف عن الآخر فى استجابته لموقف معين . كذلك يختلف الأطفال فيما بينهم تبعاً للسن فى الحالة الجسمية والذهنية . فيجب أن يراعى التوافق فكما لا يمكن إطعام الطفل مواد جامدة إلا إذا استطاع أن يهضمها ويتمثلها فكذلك لا يمكن تعليمه إلا إذا وصل إلى المستوى الذهنى الذى يسمح له بذلك . كذلك يجب ملاحظة عدم تعريض الطفل لمواقف من الحياة لا يستطيع أن يواجهها بطريقة مرضية من الناحية الانفعالية . إن ما يساعد على تكوين أنا قوية متماسكة هو تغلب التجارب المتكاملة فتساعد الطفل على أن يمر بمرحلة التحصيل دون أن يعانى قلقاً عنيفاً يعوق تطور إنيته ويضعفها .

فائزة على كامل